

النخيل تنقرض في العراق.. والتمر شحيح في بلد التمر!

تاريخ النشر: ١٦ مارس ٢٠١٤

يفسر اللغويون كلمة ارض السواد بأنها الارض التي تشابكت عروق الأشجار في باطنها، وبعضهم يذهب إلى ابعد من ذلك فيقول ان ارض العراق لكثرة ما فيها من نخيل فإنها تبدو للناظر عن بعد وكأنها اكتست باللون الاسود. مؤرخ عراقي كتب يصف ارض السواد بأنها: لم يكن يوجد فيها من أولها إلى آخرها، ولا في طولها وعرضها أرض خالية عن البناء والزراعة، فكانت العراق قطعة واحدة من الزرع، وحيث إنّ الزرع أخضر اللون، والخضرة تميل إلى السواد، لذلك قيل لها: «أرض السواد» فكان الإنسان إلى حيث يرمي ببصره لا يكاد يقع نظره إلا على المزارع والبساتين، والخضار والأشجار التي غطت البلاد، وأسودّ بها وجه الأرض، وذلك من جميع الجوانب ومن كل الجهات!

آخر إحصائية أصدرتها وزارة الزراعة العراقية تشير إلى ان العراق كان البلد الاول في زراعة النخيل في محيطه وإقليمه، اذ بلغ عدد النخيل عام 1977 اكثر من 30 مليون نخلة تتوزع على 220 نوعا، بمعنى ان سلة الغذاء العراقي تتوافر على 220 نوعا من التمور التي كانت تشكل الغذاء الاساس للفلاحين والمزارعين ولطبقات الفقيرة، وكان التمر العراقي هو الاجود من بين مثيلاته والارخص ايضا!

الشاعر البغدادي الشهير ملا عبود الكرخي ترجم ريادة العراق بزراعة النخيل ببيت شهير من الشعر الشعبي قال فيه: «بغداد مبنية ابتمر.. فلتش واكل خستاوي»، والخستاوي هو اشهر وألذ أنواع التمر في العراق ينتشر في منطقتي الجنوب والفرات الاوسط!

خبراء النخيل يؤكدون أن أعداد النخيل انخفضت من 30 مليون نخلة في بداية عقد الثمانيات من القرن الماضي إلى اقل من 10 ملايين نخلة الآن.

اما رئيس مركز النخيل في جامعة البصرة الدكتور كاظم جسام حمادي فيقول ان من اهم أسباب تراجع عدد النخيل في البصرة هو الحروب التي تعرض لها العراق، وارتفاع نسبة الملوحة بسبب ارتفاع منسوب مياه الخليج، بالإضافة إلى الزحف السكاني على بساتين النخيل والتي تشكل مشكلة كبيرة للمتبقي من المساحة الخضراء لمدينة البصرة مؤكداً أن في البصرة وحدها كان هناك ما يقارب ستمائة صنف من التمور، وبحسب الاحصائيات ونتائج الدراسات، فإن ما تبقى من الأصناف الزراعية خمسين صنفا فقط .

تحتل محافظة ديالى المرتبة الثانية بعد البصرة بأعداد النخيل وبتنوع صنوف التمور ايضا، الا ان المحافظة شهدت إبادة واسعة لبساتين النخيل خلال العقود الماضية.

تقول احصائية اصدرتها مديرية الزراعة في ديالى ان مدن المحافظة فقدت نحو مليوني شجرة نخيل خلال العقود الاربعة الماضية ولم تبق سوى مليون نخلة تقريبا، مبينة أن بساتين النخيل تعرضت لعدة أزمات منها تأثيرات الحرب العراقية - الايرانية حيث دمرت خيرة بساتين النخيل المعروفة على مستوى العراق والتي كانت تنتشر قرب المناطق الحدودية بين البلدين، وخصوصا قرب منطقة مندلي شرق بعقوبة مركز المحافظة، نتيجة القصف المدفعي المتواصل طيلة اعوام الحرب الثمانية.

ويقول علي إبراهيم وهو مسئول في زراعة ديالى ان بساتين النخيل تعرضت في منتصف عقد التسعينيات لأزمة شحة المياه، موضحا أن الازمة استمرت بشكل متواصل منذ ذلك الحين رغم وجود تفاوت في قسوتها بين عام واخر ولعل العام الماضي كان اكثرها قسوة. ولفت ابراهيم إلى أن دخول القوات الامريكية إلى البلاد عام 2003، أدى إلى حالة من الفوضى والارباك في جميع الانشطة الزراعية، حيث تبعها حالة من التردّي الامني وتدمير أغلب المطارات الزراعية والطائرات التي كانت تستخدم في رش المبيدات الزراعية بعد ظهور العديد من الافات التي اهلكت مساحات واسعة من بساتين النخيل. وأشار إلى ان آلاف الاسر الفلاحية هجرت مساكنها، مما جعلها تترك خلفها البساتين الزراعية من دون عناية، اضافة إلى حرق مئات الدونمات من قبل الجماعات المسلحة، كما ان العمليات العسكرية وقصف المروحيات الامريكية كان له تأثيره في فقدان الآف من اشجار النخيل .

اول ضربة موجعة للنخلة العراقية بدأت مع حرب الخليج الاولى التي استمرت ثماني سنوات، ثم جاءت العقوبات الدولية التي اعقبت الغزو العراقي للكويت لتجهز على آخر ما تبقى من امل بإنعاش زراعة النخيل .

وبحسب تقرير لمنظمة الامم المتحدة للتغذية والزراعة (فاو) فإن العراق كان، قبل الحظر الاقتصادي عام 1990 المنتج

الاول للتمر اذ يبلغ انتاجه السنوي 550 الف طن وكان يصدر منها 100 الف طن اي ما يساوي 80 في المائة من السوق العالمي وتدر هذه الصادرات سنويا على العراق 25 مليون دولار.

ان شجرة النخيل، كما يقول مزارع عراقي من البصرة، تشبه الجنس البشري يلزمها 15 سنة لتكبر وتعيش 70 سنة وعندما تقطع رأسها تموت!

من يسلك الطريق الممتد من بغداد إلى البصرة والبالغ 600 كم يجد على جانبي الطريق بساتين نخيل ماتت وهي واقفة ينطبق عليها الوصف القرآني البليغ (فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية!!)

آلاف من النخل العراقي قد مات بسبب الاوبئة امام عجز حكومي عن مكافحة حشرة «الدوباس» التي تنخر جذع النخلة حتى تميتها وهي واقفة، وبعضه الآخر قد احترق بسبب قذائف المدفعية والطائرات فتحول إلى اعمدة متفحمة ثم احني الرأس استسلاما لقدره وإعلانا لموته!

المفارقة ان جميع التشريعات والقوانين التي عرفها العراقيون القدامى تضمنت نصوصا لحماية النخيل ومعاينة من يتجاوز على النخلة بينما تتعرض بساتين النخيل اليوم إلى اباده جماعية من غير ان تجد قانونا يحميها او حكومة تذود عنها.

لقد خصصت شريعة حمورابي، وهي اول مسلة قانونية عرفتها البشرية، عدداً من موادها لحماية زراعة النخل، فالمادة التاسعة والخمسون منها تنص على تغريم من يقطع نخلة واحدة بنصف (من) من الفضة، ولا بد أن تكون هذه الغرامة باهظة في ذلك العهد. وتنص المادة الستون على أنه: إذا أعطى شخص أرضه لآخر ليغرسها بساتناً فليس له الحق في العوض لأربع سنين وفي السنة الخامسة يتقاضى نصف الناتج، وأما المادة الخامسة والستون فتتص على أنه إذا أهمل الفلاح تلقيح النخل وسبب نقصاً في الحاصل فعليه أن يؤدي إيجار البستان أسوة بالبساتين المجاورة.

إن عناية البابليين في رعاية النخلة وخدمة تربتها قديمة، إذ وجدت وثيقة من العهد البابلي تلزم مستأجر بستان النخل بحراثة الأرض المزروعة بالنخل، ومراقبة الطلع وتلقيحه، بل كان البابليون يزاولون تسميد النخل وتنظيف قواعده من القمل غير ان احفاد البابليين انتهكوا جميع الشرائع والقوانين وهم يتسببون بموت ملايين النخيل مرضاً او اهمالا او اجثاثا او حرقا او عطشا!

السياسة هي الاخرى لعبت دورا خطيرا في قتل النخلة العراقية او تهريبها إلى دول الجوار.

ويؤكد مزارعون من ابي الخصيب ومن قضاء الفاو التي دارت على ارضها معارك ضارية بين العراق وايران يقول هؤلاء: ان هناك تهريبا منظما لفسائل الانواع النادرة من التمر من العراق إلى ايران ودول الجوار الاخرى وفي مقدمة تلك الانواع المهربة نخلة «البرحي» التي تعد من اجود انواع التمور في المنطقة!

وزارة الزراعة العراقية (تتباهى) بارتفاع انتاج التمور المستلمة من الفلاحين والتي تجاوزت الـ200 الف طن، فيما كان العراق ينتج خلال فترة التسعينيات (881) الف طن سنويا وهي فترة كان العراق يزرع فيها تحت عقوبات غير مسبوقه في تاريخ العلاقات الدولية.

وقالت الوزارة في بيان: ان كميات التمور المستلمة من أصحاب البساتين ارتفعت إلى أكثر من (207799) مائتين وسبعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعين طنا من التمور خلال الاونة الأخيرة، بينما كان العراق حتى نهاية عد السبعينيات يحتل المرتبة الاولى بين دول العالم قاطبة من حيث كميات التمور المصدرة.

تراجع العراق كاول بلد في انتاج التمور كما تراجع عن مواقع كثيرة كان راندا فيها، وذلك بسبب الفساد والتخلف والاهمال!

النخلة العراقية تموت واقفة وبساتين النخيل آخذة بالانقراض والتمر شحيح وسيشخ في بلد كانت أرضه تسمى (أرض السواد!)